أثر الجهارة في التبليغ والتواصل عند العرب القدامى

الدكتور بلقاسم بن أحمد بلعرج*

الملخّص

تتناول هذه الدّراسة سمة من سمات الأداء الكلامي عند العرب القدامى،وهي الجهارة، وتبيّن أنهم أُعجبوا بجهارة الصوت ــ وكذلك وضوحه ــ واهتمّوا بها أيّما اهتمام،حتى صارت جزءاً من ثقافتهم في عملية الاتّصال والتّواصل، بل ومن السّمات الشّخصية والنّفسية والاجتماعية للمتكلّم، رجلاً كان أم امرأة ؛ بمعنى أنها وسيلة حياة، ومن تمام الإكرام والضّيافة.

وقد ربطوها بالبيان والتّبيين وقوّة الدّلالة فكانت منبع فخر وصفة جمال ؛ بها يعلو قدر المتكلّم وقيمته، كما غَدَت أساس سيادة وشرف؛ بها يغالبون الأمم الأخرى وربما يتغلّبون.

ولاشك في أن لعاملي البيئة والأمّية دخلاً في ذلك ؛ فامتداد الصحراء وسعة الأفق أحوجهم أكثر إلى جهارة الصوت ووضوحه، كما أن الأمّية تدفع صاحبها إلى الاعتماد على الرّواية والسّماع عَوض القرطاس والقلم، حتى قيل : إن العرب أُعطُوا الكلام ومُنعوا الطّعام.

* قسم اللغة العربية وآدابها – جامعة قالمة – الجزائر

لا اختلاف في أن لكل لغة بيئتها التي نشأت ونمت في رحابها، وناطقيها الـذين تأثرت -وأثرت- بحياتهم وبما يحيط بهم.

واللغة العربية نموذج صادق لبيئتها، فأنت تكاد ترى طبيعة البلاد فـي ألفاظهـا وتلمس أحاسيس العرب في كلماتها، كما أن صدى حياتهم العقلية و الاجتماعية يتـردد في أساليبها [1].

وقد ارتبط ظهور الثقافة بظهور الرموز والعلامات التي تُكَون نظام اللغة، عرف الإنسان الثقافة عندما عرف طرق الكلام وطرق التواصل، ومن ثم صارت اللغة هـي الذاكرة الجماعية والوعاء الحقيقي للثقافة وأهم المظاهر التي تميز مجتمعاً من غيـره من المجتمعات [2].

وما دامت اللغة مرتبطة بأهم عضو في الجهاز النطقي للإنسان وهـو اللـسان، سميت باسمه، قال الله تعالى:{ومأرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم}[3] وقال: {ومن آياته خَلْقُ السماوات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم }[4] ولأهمية اللـسان عند العرب،اهتموا به وبالغوا، وطالبوا بالعمل على رياضته حتى يرق ويلين، ولو بقي دون ذلك؛ جسأ [5] وغلظ كما يقول الجاحظ [6].

وهو ما تؤكده الدراسات اللغوية الحديثة، فقد ذهب اللغوي الأمريكي فان رايبـر VAN RIPER إلى أن الإنسان بإمكانه أن يجعل من صوته أداة بديعية تثير الإعجاب،

1)-ينظر: محمد محمود محمدين، رأي في تسمية الحركة العربية وأسباب هذه الحركة، مجلة اللسان العربي، مجلد18/ 1980، 1/ 165، 166.
2)-ينظر: كريم زكي حسام الدين، الدلالة الصوتية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1992، القـاهرة، ص 111.
3)-إبراهيم 14 /4.
4)-الروم30 /22.
5)- أي يبس وصلب.
6)- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هـارون، دار الجيـل، بيـروت (دط)، 272/1.

ومنه دعا إلى تخصيص فترات تدريبية في مدارس الأطفال لتنمية الصوت وتحسينه، كما دعا إلى إنشاء برامج خاصة للكبار تعنى بتربية الأصوات وعلاج الرديئة منها[1].

ولهم في الأشعار والأنثار مدائح للسان[2]، بل حصروا الجمال فيه، فقد روي أن العباس بن عبد المطلب قال للنبي(ص) : "يا رسول الله فيم الجمال؟ قال: في اللسان"، وقال "خالد بن صفوان": ما الإنسان لولا اللسان، إلاّ صورة ممثّلة أو بهيمة مهملة.وقال صاحب المنطق : حدّ الإنسان الحي، الناطق المبين [3].

ويقال: "عقل الرجل مدفون تحت لسانه"[4].

وقال "يونس بن حبيب":"ليس لعيٍّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء ولو حك بيافوخه أعنان السماء"[5].

يفهم من هذه الأمثلة أن الإنسان هو اللسان، كما يقال، به تتحدد شخصيته وتعرف مكانته بين الناس، فالأنشطة الكلامية متعلقة به، كالمحادثة و المنازعة، والمقابلة والمغازلة والمشاكسة والهزل، والمقدمات والمحاضرات وما إلى ذلك من مختلف المواقف والمناسبات التي يستعمل فيها اللسان في التأثير في المتلقين، وفي تأسيس العلاقات والروابط الاجتماعية و تحسينها.

وهو ما يعني أن الأمثلة لا تشير إلى ما يسمى بالقدرة اللغوية فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى مايسمى بالقدرة الاتصالية، وهي المعرفة التي يحتاج إليها المتحدث أو المتلقي، ومن ثم هي من هذه الزاوية أوسع كثيراً في نطاقها وأشمل في معناها من القدرة اللغوية التي تنحصر في معرفة الصيغ اللغوية ليس إلا.

---

1) ينظر الدلالة الصوتية ص 85.
2)–ينظر البيان والتبيين 166/1
3)– نفسه، 170/1، و ابن قتيبة، عيون الأخبار،دار الكتاب العربي، بيروت، 1925، 2/ 168.
4)– نفسه،1/ 171، وعيون الأخبار،168/2.
5)–نفسه 77/1.

ومنه يكون عيي اللسان ورديء البيان فاقدا لكلتا القدرتين معاً، مما يفسد تواصله مع المجتمع وينقص من شعبيته ويشوه صورته الشخصية.

وهناك أمثلة كثيرة تبين مدى اهتمام العرب برياضة اللسان نذكر منها على سبيل المثال ما جاء في البيان والتبيين للجاحظ، يقول: "وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلّدت نفسه وفسد حسه، وكانوا يروّون صبيانهم الأرجاز ويعلّمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم[1] (أي الحلق).

وما جاء في الخصائص" لابن جني"، وهو يشرح بيتين من الشعر:[الطويل]

" ولَمَّا قَضَيْنا مِنْ مِنىً كُلَّ حَاجةٍ ومَسَّحَ بالأَرْكانِ مَنْ هو مَاسِحُ
أخَذْنا بأَطرَافِ الحَدِيثِ بَيْنَنا وسَالت بِأَعْنَاقِ المطِيِّ الأَبَاطِحُ

"..... وذلك أنهم قد شاع عنهم واتّسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الأليفين والفكاهة بجمع شمل المتواصلين" [2].

بغض النظر عما جاء في المفاضلة بين النطق والسكوت والمقال والسماع فإننا نشير هنا إلى أن العرب ترى في طول الصمت حبسة وفي ترك الحركة عقلة[3]، وأن أقدر الناس على الكلام من عوّد نفسه الركض في ميادين الألفاظ[4].

وهي دعوة إلى إطالة الكلام و تمرين اللسان ورياضته. و لعل هذا يشير إلى أن العرب كانوا يدركون في ذلك العصر أكثر من غيرهم الوظيفة الأساسية للغة،

1)- ينظر المصدر السابق نفسه،272/1.
2)-ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 218،219/1.
3) أي التواء اللسان عند إرادة الكلام.
4) ينظر الراغب الأصفهاني محاضرات الأدباء، و محاورات الشعراء و البلغاء، دار مكتبة الحياة، بيروت، (دت) 68/1.

وهي تحقيق الاتصال والترابط بين أفراد المجتمع من ناحية وبين الفرد والجماعة اللغوية التي ينتمي إليها من ناحية ثانية، وهو أمر يعطيه شعورا بالأمان والانتماء الاجتماعي.

وقد تصبح اللغة غاية في نفسها، لما تجلبه من متعة، فبعض الناس تسكره شهوة الكلام و يجد لذة في سماع صوته وهو يتكلم أو يكلم نفسه بل ويتلذذ بسماع صوت غيره كذلك، ولذلك قيل: الكلام أكثر اللعب الإنسانية حباً إلى الإنسان.

وهو ما يؤكد قولاً مأثوراً في العرب، أنها أُعطيت الكلام ومُنعت الطعام[1]. وقد وصفهم القرآن في أكثر من موضع ببلاغة المنطق، واستمالة الأسماع بحسن ألسنتهم، قال تعالى:{ وإنْ يقولوا، تَسْمَعْ لِقَوْلِهم}[2] وقال :{وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعجِبُكَ قَوْلُه في الحياة الدنيا}[3]، وفي نقيض ذلك وصفهم باللّدد عند الخصومة، قال تعالى :{فإذا ذهب الَخوْفُ سَلَقوُكم بِأَلْسِنة حِداَدٍ}[4]، وقال :{و تُنْذِرَ به قَوْماً لُداًّ}[5]، وقال :{ و يُشْهِدُ الله على ما في قَلْبِه وهو أَلدُّ الخصام}[6].

ما يفهم من هذه الآيات أن الناس يتأثرون بالكلمة المنطوقة أكثر مما يتأثرون بالكلمة المكتوبة وأن اللسان سيف ذو حدين ومن أقوى الأسلحة النفسية للسيطرة على العقول والأفكار والقلوب إن إيجاباً أم سلباً ومن ثم أشار القرآن إلى صنفين من العرب في ذلك الوقت: صنف تعجبك ذلاقة لسانه ونبرة صوته و جهارته، ويعجبك حديثه عن الخير والصلاح زيادة في التأثير والإيحاء فتعجب بكلامه وتستطيبه وتتمنى دوام سماعه فكأنه يأسرك أسراً فيستميل بذلك الأسماع والقلوب.

1)–أبو حيان التوحيدي، الإمتاع و المؤانسة، صحّحه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة (دت)، بيروت، لبنان، 69/3.
2)–المنافقون63 /4.
3)–البقرة 204/2.
4)–الأحزاب19/33.
5)–مريم 19 /97.
6)–البقرة 2/ 204.

وصنف نقيض الأول تزدحم نفسه باللدد والخصومة، فلا سماحة ولا ود، وإنما هناك كذب وتمويه وفحش في القول وسلاطة في اللسان وطعن وأذى، وصخب وصياح.

ومنه يعد الكلام من أهم الوسائل التي تمكن الفرد من أن ينقل صورته أو ملامحه الشخصية إلى الآخرين حتى يتمكن الآخرون من تقويمها من خلال ما يقوله و من خلال طريقته في الكلام.

ولشدة احتفائهم به نجد أن قيمة الرجل عندهم تعلو بقدر ما يقول لا بقدر ما يفعل[1]، وهي صفة ذمّها القرآن، يقول الله تعالى:{يا أيُّها الذين آمَنُوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفْعَلون كَبُرَ مَقْتاً عند الله أَنْ تَقولوا ما لا تَفْعَلونَ}[2]، وذمّها الإنسان كذلك، فقد أنشد "الأصمعي" "للمكعبر الضبي" يصف قوماً يحسنون في القول ويسيئون في العمل، [الطويل]:

كُسَالَى إذا لاَقَيْتَهُمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ يُلَهّىَ به المَحْروبُ وهو عنَاءُ[3].

فقد كانت العرب أمة صوتية [4]–إن صحّ هذا الوصف– عمدتهم في ذلك الأذن واللسان، ولا أدلُّ على ذلك من أنّهم جعلوا الكلام الذي أعطوه وحياً أوحي إليهم، وإلهاماً أُلهموه، على ما ورد عن "الخليل وابن فارس"[5]، فهو عندهم "وسيلة حياة، ومنبع فخر وصائن، وأساس سيادة وشرف، وليس للعربي في هذه البيئة الجافة

1)–ينظر الدلالة الصوتية ص 112.
2)– الصف61/ 2،3.
3)– ينظر :البيان و التبيين،1/9.
4)–ينظر الدلالة الصوتية ص 113.
5)–ينظر: محمد عيد، الرواية و الاستشهاد باللغة، عالم الكتب، القاهرة، (دط)، 1976، ص، 6.

القاسية العارية عن الحضارة إلاّ العِرض والفخر والسيادة والشرف، وهذه هي الأسس المعنوية للحياة نفسها[1].

وقد راعوا في عملية الأداء الكلامي ثلاث سمات[2] وهي:

1. الفصاحة: البيان والوضوح وطلاقة اللسان في القول، وخلوص الكلام عن التعقيد[3].

2. الجهارة: علو الصوت وارتفاعه في الكلام[4].

3. الإيقاع: تواتر الحركة النغمية و توازنها، أي أن يوقع المتكلم الألحان والأصوات ويبنيها بفواصل زمنية متناسبة ومتشابهة و متعادلة[5].

ولا شك في أن لمناخ الصحراء وتضاريسها أثراً مهماً ساعد على شحذ آذانهم وجعلها أكثر حساسية وأقدر على تمييز أصوات الطبيعة بعضها من بعض واستعذاب الحسن والنفور من السيئ، وبالنظر إلى امتداد الصحراء وسعة الأفق كانت الحاجة ماسة أكثر إلى جهارة الصوت ووضوحه.

فضلاً عن أنها أمية تعتمد على الرواية في نقل العلوم والمعارف المتمثلة في الشعر والأمثال والحكم والأقوال المأثورة ... أي أنها تعتمد على السمع الذي يعوض القلم والقرطاس حينئذ.

---

1)–المرجع نفسه ، ص، 5.

2)– ينظر الدلالة الصوتية ص 113.

7) ينظر ابن فارس، مقاييس اللغة باب الفاء والصاد وما يثلثهما و اللسان مادة (فصح)، والمنجد في اللغة والأعلام باب الفاء.

8) ينظر مقاييس اللغة باب الجيم والهاء وما يثلثهما واللسان مادة (جهر) والمنجد في اللغة والأعلام باب الجيم.

9) ينظر أبوحيان التوحيدي، المقايسات تحقيق حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية بمصر ط 1، 1929 ص 310، وينظر اللسان مادة (وقع).

كما أنّهم يطربون للأصوات الجميلة ويستجيبون لها إيقاعاً وجهارة ووضوحاً، ولهذا نجد في الأصول أن السماع مقدم على القياس لأن علوم القرآن والحديث واللغة والنحو تقوم على الرواية لا الدراية وعلى البيان لا البرهان[1].

ومن الدلائل القاطعة على أثر الصوت وأهميته ما ورد في القرآن الكريم بشأن "إبليس" الذي يضل الناس ويغويهم مستعيناً بالصوت، قال الله تعالى: {واستَفْزِزْ مَنِ استَطَعْتَ مِنْهم بِصَوْتِكَ وأَجْلِب عَلَيْهم بخيْلِكَ وَرَجْلِكَ}[2].

وقد فسّر "الزمخشري "الآية، يقول: "هو كلام ورد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلّطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيّالة ورجالة، حتى استأصلهم، وقيل بصوته، بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله كل راكب وماش من أهل العبث"[3].

ويقول "الطاهر بن عاشور" في تفسيرها: "والاستفزاز طلب الفز، وهو الخفة والانزعاج وترك التثاقل، والسين والتاء فيه للجعل الناشئ عن شدة الطلب والحث الذي هو أصل معنى السين والتاء، أي استخفّهم وأزعجهم، والصوت يطلق على الكلام كثيراً، لأنّ الكلام صوت من الفم واستعير هنا لإلقاء الوسوسة في نفوس الناس (...) والإجلاب، جمع الجيش وسوقه . مشتق من الجلبة (...) وهي الصياح"[4].

وكما مدحوا الرجل بجمال اللسان، فإنّهم قد مدحوه بسعة الشدق أو كبره وببعد الصوت وقوته وقدرته على بلوغ الأسماع من مكان بعيد، ونقيض ذلك أنّهم ذمّوه بأنّه

1)- الدلالة الصوتية ص 113.
2)- الإسراء 17 / 64.
3)-الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت، (دت)، 456/2.
4)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1984، 153/15.

ضئيل الصوت، كما ذمّوه بضيق الشدق أو صغره. [1] وسئل أعرابي عن الجمال، فأجاب : الجمال، طول القامة وضخم الهامة ورحب الشدق وبعد الصوت.[2]

والأمثلة كثيرة من هذا القبيل ذكرها "الجاحظ" [3]، ويضيق المقام هنا بعرضها كلّها، ويكفي الاستشهاد ببعضها توكيداً لذلك، منه قول الشاعر في "عمرو بن سعيد الأشدق": [الطويل]

تَشَادق حتّى مَالَ بالقَوْلِ شِدْقُهُ وكلُّ خطيب لا أبَاَ لَكَ أَشْدَقُ

وقول "العجير السلولي" في شدة الصوت: [الطويل]

جَهِيرٌو مُمْتَد العِنَانِ مُنَاقِلٌ بَصيرٌ بِعَوْراتِ الكَلام خَبِيرُ

وقول "شبّة بن عِقال"[4] في تفضيل الجهارة في الخطب ومدحها :[الطويل]

ألاَ لَيْتَ أمَّ الجَهْمِ و اللهُ سَامعٌ ترى حيث كانت بالعِراقِ مَقامي
عشية بَذَّ النَاسَ جهري ومنطقي وبذَّ كلامَ النَاطقينَ كلامي[5]

يعني أن جهر الصوت و مده في الكلام حتى يبلغ الأسماع بوضوح و يطغى على ما دونه من الأصوات من المحاسن عند العرب به يمتدحون، ولا يصدر ذلك إلا من أشدق بيّن الشّدَق، وهو الشاعر أو الخطيب الواسع الشدق المنطيق المتفوه ذو البيان.

1)–ينظر: البيان والتبيين، 120/1، 121 والدلالة الصوتية، ص، 114.
2)–نفسه121/1، والدلالة الصوتية، ص، 114.
3)–نفسه، 120/1 وما بعدها.
4) – شبة بن عقال المجاشعي، من مجاشع رهط الفرزدق وهو زوج (جعثن) أخت الفرزدق. ينظر هامش البيان والتبيين 123/1.
5)–البيان والتبيين121/1،123، 127، الدلالة الصوتية، ص، 114،115.

ولفظ الجهر يدل في الأصل على إعلان الشيء وكشفه وعلوه، ويتعلق من هذه الناحية بالمسموعات والمبصرات، لما بينها من الاتحاد في الوضوح والانكشاف.

يقال: جهر بكلامه وصلاته وقراءته يجهر جهراً وجهاراً، رفع بذلك صوته. وجاهرتهم بالأمر مجاهرة، عالنتهم، واجتهر القوم فلاناً : نظروا إليه عياناً جهاراً، ورجل جهير: إذا كان في الجسم والمنظر مجتهراً، و كلام جهير، وصوت جهير: عالٍ.

ومنه جهر البئر و اجتهرها، إذا أظهر ماءها. و سمي الجوهر جوهرا لظهوره للحاسة[1] وهو في القرآن مصدر (جهرت) الدال على الوضوح والظهور لحاستي السمع والبصر[2].

فأما السمع فنحو قوله تعالى: "سواء منكم من أسر القول أو جهر به"[3] وقوله تعالى:" ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها..."[4] وقوله تعالى :" وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر و أخفى"[5]

وأما البصر: فنحو قوله تعالى:" وإذ قلتم يا موسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة"[6] أي عياناً[7] ظاهرا لا في نوم ولا في غيره.

1) ينظر الخليل بن أحمد الفراهيدي كتاب العين مادة (جهر) 388/3، والراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت (دت) كتاب الجيم ص 101، ولسان العرب مادة (جهر) ومقاييس اللغة باب الجيم والهاء وما يثلثهما مادة (جهر) والكفوي، الكليات ص 356.
2) ينظر الراغب، المفردات ص ن.
3) سورة الرعد :10.
4) سورة الإسراء: 110.
5) سورة طه: 7.
6) سورة البقرة : 55.
7) يقول الطاهر بن عاشور: والعدول عن أن يقول (عياناً) إلى قوله (جهرة) لأن (جهرة) أفصح لفظاً لخفته، فإنه غير مبدوء بحرف حلق، والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق من وقوعه في وسط الكلام ولسلامته من حرف العلة وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها في الكلام وخفتها على السمع وللقرآن السهم المعلى في ذلك وهو في غاية الفصاحة. التحرير والتنوير 507/1.

وقوله عز وجل:" فقد سألوا موسى أكثر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة"[1] وقوله: "ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً و جهراً"[2].

وممن عرفوا بجهارة صوتهم ومدحوا بذلك وكان تأثيرهم في أسماع العامة ونفوسها،" العباس بن عبد المطلب"، فقد كان جهير الصوت، ونفع الله به المسلمين يوم "حنين"، حين تفرّق الناس عن رسول الله (صلعم)، فنادى العباس : "يا أصحاب سورة البقرة [3]، هذا رسول الله، فتراجع القوم وأنزل الله –عزّ وجلّ– النصر وأتى بالفتح"[4]. وكان أبو عروة السبّاع " يصيح بالسَّبع وهو يحمل الشاة فيخلّيها ويذهب هارباً، فضرب به "النابغة الجعدي" المثل: [المنسرح]

وَأَزْجُرُ الكَاشِحَ العَدُوَّ إذاَ اغْـــ تاَبَكَ عِنْدِي زَجْراً على أَضَمِ[5]
زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السِّبَاعَ إذاَ أَشْفَقَ أن يَلْتَبِسْنَ بالغَنَمِ

و"شبيب بن يزيد بن نعيم الخارجي" الذي كان يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه، فلا يلوي أحد على أحد، فقيل فيه: [البسيط]

إِنْ صَاحَ يَوْماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْحَدِراً والرِّيحَ عاصِفَةً والمَوْجَ يَلْتَطِمُ[6]

وعلى القارىء أن يتصور بعد هذا ويقدر قوة الصوت وشدته التي ترهب السبع الجائع وتفتق قلبه وهو يحمل الفريسة فيخليها ويفزع هارباً.

8) سورة النساء: 153.
9) سورة النحل: 75.
3)– والمعروف : "يا أصحاب السمرة" والسمرة هي الشجرة التي تمت عندها بيعة الرضوان، ينظر البيان والتبيين.123/1. الهامش2.
4)–ينظر : البيان والتبيين123/1، والدلالة الصوتية، ص، 115، و الكشاف،555/3.
5)– الأَضَمُ: الغضب.
6)–ينظر: البيان و التبيين، 128/1،129.

وعليه أن يتصوركذلك ويقدر قوة الصوت وشدته على الأسماع والنفوس، وهو يشبه بأصوات قوى الطبيعة وهي في أوج حركتها، صخر منحدر، وريح عاصف، وموج يلتطم.

ولم تقف المسألة عند هذا الحد بل صارت قوة الصوت وجهارته في ثقافة العرب سلاحاً قوياً يستعمل ضد الخصوم والأعداء ناهيك عن الأهل والأصدقاء، كما وظّف ضمن الموضوعات المتداولة في الصراع المحتدم بين العرب والعجم.[1].

من ذلك ما رواه "الجاحظ" من مطاعن الشعوبية على خطباء العرب وبلغائهم "... ولطول اعتيادكم لمخالطة الإبل جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم حتى كأنكم إذا كلّمتم الجلساء إنّما تخاطبون الصمّان[2] "[3].

وهو ما يفيد أن العرب كانوا يتميزون بقوة في الصوت وجهارة، وأن للبيئة تأثيراً في السلوك اللغوي للإنسان.

فبعد المسافات بين القبائل و صعوبة التنقل في الفيافي والقفار؛ لكثرة المهلكات، يفرض على الإنسان الاستعانة بالصوت على التواصل وتحقيق المآرب، ولا يكون ذلك إلا برفعه ومده، وقد ساعد على ذلك سعة الأفق وامتداد الأرض فصار الجهر صفة من صفاتهم وطبعاً من طباعهم في القرب وفي البعد.

ومع شدة إعجاب العرب الأوائل بجهارة الصوت ووضوحه حتى صار سمة من سمات ثقافتهم في عملية التواصل أو الأداء الكلامي، فإنّه لما جاء الإسلام محا بعض الصفات والعادات السيئة وأبطلها وأبقى على بعضها، وهذّب بعضها الآخر، من ذلك تهذيب السلوك الكلامي الذي نقرؤه على لسان "لقمان الحكيم" وهو يوصي ابنه

1)-ينظر الدلالة الصوتية،ص، 116.و الكشاف،555/3.
2)-الصمّان: جمع أصم.
3)-ينظر : البيان والتبيين14/3، و الدلالة الصوتية،ص،116،117.

ويعضه: {..... واقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ من صَوْتِك إنّ أَنْكَرَ الأَصْوات لَصَوْتُ الحَمِيرِ}[1].

يفسر "أبو حيان" هذه الآية يقول: "... ولما نهاه عن الخلق الذميم أمره بالخلق الكريم، وهو القصد في المشي بحيث لا يبطئ كما يفعل المتنامسون[2] والمتعاجبون يتباطؤون في نقل خطواتهم المتنامين للرياء. والمتعاجب للترفع، ولا يسرع كما يفعل الخرق المتهور (...) والغض من الصوت: التنقيص من رفعه وجهارته، والغض: رد طموح الشيء كالصوت والنظر والزمام، وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت وتمدح به في الجاهلية (...) وغض الصوت أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه(...) والأصوات أصوات الحيوان كلها، وأنكر جماعة للمذام اللاحقة للأصوات، والحمار مثل في الذم البليغ و الشتيمة، شبه الرافعون أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنهاق، ولم يأت بأداة التشبيه بل أخرج مخرج الاستعارة، وهذه أقصى مبالغة في الذم و التنفير عن رفع الصوت(...) وقال "الحسن" : كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات، فرد عليهم بأنه لو كان خيراً فضل به الحمير (...) ورفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرج الغشاء الذي هو داخل الأذن، وقيل (أقصد في مشيك) إشارة إلى الأفعال و(اغضض من صوتك) إشارة إلى الأقوال، فنبه على التوسط في الأفعال وعلى الإقلال من فضول الكلام"[3].

وما نقرؤه كذلك في سورة الحجرات من قوله تعالى: { يا أيّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتَكم فوق صَوْتِ النَّبيِّ ولا تَجْهَروا له بالقَوْلِ كَجَهرِ بعْضِكُم لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُم وأنتم لا تَشْعُرون. إنَّ الذين يَغضُّون أَصْواتَهُم عند رسول الله أولَئكَ

1)–لقمان 32/ 19.
2)– التنميس: التبليس، وما تُمُّسَ به من الاحتيال.
3)– أبو حيان التوحيدي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ أحمد عادل عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/ 1993، 7/183،184، وينظر، الدلالة الصوتية، ص، 117،118.

الذين امْتَحَنَ اللهُ قُلوبَهُم للتقوى لهَم مَغْفِرَة وأَجْر عظِيم. إنَّ الذين يُنَادُونكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَات أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ، ولَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِم لَكانَ خَيْراً لَهُم والله غَفُورٌ رَحِيمٌ }[1].

من بين ما يقول "الزمخشري" في تفسير الآيات : "و المراد بقوله:{لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} أنّه إذا نطق ونطقتم فعليكم ألاّ تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم وجهره باهراً لجهركم (...) لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم. وبقوله: {ولا تجهروا له بالقول} أنّكم إذا كلّمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم ألاّ تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمّدوا في مخاطبته القول البين المقرّب من الهمس الذي يضاد الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم"[2].

ويرى "أبو حيان" أن الآية الأولى في هذه الآيات نزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت، فأمرهم الله تعالى بألاّ يرفعوا أصواتهم إذا نطقوا ولا يجهروا إذا كلّموا الرسول (ص)، لأن رتبة النبوة والرسالة يجب أن توقّر وتجلّ ولا يكون الكلام مع الرسول (ص) كالكلام مع غيره.[3]

ويذهب "الفخر الرازي" إلى أن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام، لذا لزم ألاّ يرفعوا كلامهم على كلام النبي (ص) في الخطاب، لأن خفض الصوت لا يكون إلاّ للاحترام وإظهار الاحتشام، ومن بلغ احترامه إلى حيث تنخفض الأصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لا يكثر عنده الكلام ولا يرجع المتكلِّم معه في الخطاب[4]

1)-الحجرات49 / 2،3،4،5.
2)-الكشاف3/554.
3)ينظر : تفسير البحر المحيط، 8/105.
4)- الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3 (دت)، 28/112،113.

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي يذم فيها رفع الصوت سواء في المواقف أو في الأوقات نحو حضور الجنائز، وفي الليل وفي العبادة عند الصلاة والدعاء، قال الله تعالى: { وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}[1]. ولم يكن الإسلام مهتماً بتهذيب السلوك الفعلي و الكلامي للرجل فحسب بل اهتم به كذلك بالنسبة إلى المرأة المسلمة، ومن أمثلة تهذيب السلوك القولي، قوله تعالى : { فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَولِ فَيَطْمَعَ الذي في قَلْبِهِ مَرَضُ وقُلْنَ قَولاً مَعْرُوفاً }[2]. أي "... فلا تجبن بقولكن خاضعاً، أي ليناً خنثاً مثل كلام المريدات والمومسات {فيطمع الذي في قلبه مرض} أي ريبة وفجور، وقرئ بالجزم عطفاً على محل فعل النهي على أنّهن نهين عن الخضوع بالقول، ونهي مريض القلب عن الطمع، كأنه قيل: لا تخضعن فلا يطمع (...) {قولاً معروفاً} بعيداً من طمع المريب يجد خشونة من غير تخنيث، أو قولاً حسناً مع كونه خشنا "[3].

وأورد "الجاحظ" في باب "ما قالوا فيه من الحديث الحسن" أبياتاً "لبشار بن برد"، نخال بيتين منها ترجمة لمعنى الآية المذكورة آنفاً، يقول "بشار": [الكامل]

أُنْسٌ غَرَائِرُ ما هَمَمْنَ بريبَة كَظِبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامُ
يُحْسَبْنَ من لِينِ الحَدِيثِ زَوَانِياً وَيَصُدُّهُنَّ عن الخَنَا الإسلامُ [4]

و"لابن عباس" كلام في هذا الموضوع، يقول:" المرأة تندب إذا خالطت الأجانب عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول من غير رفع الصوت، فإنّها مأمورة بخفض الكلام"[5].

1)– الإسراء 17 / 110.
2)– الأحزاب 33 / 32.
3)–ينظر الكشاف، 260/3، و البحر المحيط، 222/7، و التحرير و التنوير، 8/22.
4)–بشار بن برد، الديوان، تحقيق، محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الشركة الجزائرية للنشر و التوزيع، 1976، 212/4، وينظر : البيان و التبيين276/1.
5)– ينظر: البحر المحيط223/7، والدلالة الصوتية، ص، 124.

أما أمثال تهذيب السلوك الفعلي أو الجسمي، فقوله تعالى: { ولاَ يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهِنَ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}[1].

وله – مثلما يلاحظ من الآية– علاقة بدلالة الصوت وتأثيره، فقد ذهب المفسرون إلى أن المرأة كانت تضرب برجلها ليسمع خلخالها فيعلم أنّها ذات خلخال، وربما ضربت إحدى رجليها بالأخرى إظهاراً بأنّها ذات خلخالين ولذلك وقع و تأثير في نفس السامع ولعلّه يثير شهوته ويصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتها ولذا فالنساء "إذا نهين عن إظهار صوت الحلي بعدما نهين عن إظهار الحلي علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ"[2].

وإذا كانت العرب تمدح الرجل بجهارة صوته وقوته ووضوحه، فإنّها تمدح المرأة بخفوت صوتها ورقته[3]،وقد تغنى الشعراء بذلك كثيراً، يقول "ذو الرمة": [الوافر]

رَخِيمـــاَتُ الكَـــلاَمِ مُبَطِّنـــاَتٌ جوَاعِلُ في البُرَى قَصَباً خِـدَالاَ [4]

أي أنّهن لينات الكلام ؛ يغضضن من أصواتهن ويخففنها إذا تحدثن.

ويقول متغزلاً :[الطويل]

لها بَـشَرُ مِثْـلُ الحَريـرِ ومَنْطِـقُ رَخِيمُ الحَوَاشِي لاَ هُرَاءٌ ولاَ نَزَرُ[5]

1)–النور 24/ 31.
2)–ينظر: الكشاف62/3، 63، البحر المحيط414/6، التحرير و التنوير، 213/18، التفسير الكبير،23/ 209،210.
3)–نشير إلى أنه يوجد فرق –وهو طبيعي– بين صوت الرجل وصوت المرأة من حيث الشدة و القوة، وذلك أمر يعود إلى طبيعة الوترين الصوتيين لدى كل منهما.
4)– ذو الرمة، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تقديم، مجيد طراد،، دار الكتاب العربي، ط 2، بيروت، 1996، ص،514.
5)– ديوانه،ص،208، و البيان و التبيين،276/1، وعيون الأخبار،المجلد الرابع، 83/10.

ولا يخفى تأثير الكلام العذب الرقيق في قلب الرجل، فهو يشتهيه ويتمتّع به، فيجد في نفسه حاجة تدفعه إلى مبادلة صاحبته كلاماً بكلام وشعوراً بشعور وفي ذلك من المتعة ما لا يخفى. يقول "بشار بن برد": [مجزوء الكامل]

وكأنّ رَجْعَ حَدِيثِهاَ قِطَعُ الرِّيَاضِ كُسِينَ زَهْرَاَ
وكأنَّ تَحْتَ لِسَانِهاَ هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيه سِحْرَاَ [1]

ينبئ هذان البيتان عن مدى تأثيرصوت النساء وحديثهن في الرجال مما حدا بالشاعر إلى تشبيه هيئة أجزاء كلامها ومقاطعه في الاختلاف والتلون وتنوع المحاسن ــ وهي تجيبه ــ بقطع الرياض في حسن منظرها ومما زادها حسناً وجمالاً للناظر والمستنشق ظهور النور فوقها؛ وهو تشبيه من بديع التمثيل، أي تشبيه المعقول بالمحسوس؛ فمعاني الكلام البديعة شبيهة بخضرة الرياض، وما فيه من اللطائف والمحسنات الزائدة على شرف المعنى شبيه بزهر الرياض.

وهذا الوصف لايصدر إلاعن مفتون مأسور بكلامها؛ ولهذا شبه تأثيره في نفس السامع بتأثير السحر، ولعله مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام : إن من البيان لسحرا. وقد بالغ في السحر المشبه به بأنه سحر هاروت لما اشتهر به هذا الأخير ــ مع ماروت ــ من قدرة كبيرة على سحر الناس والتأثير في عقولهم وقلوبهم، وجعل هاروت نافثاً تخييل لأنهم كانوا في ذلك الوقت يعالجون السحر بالنفث في العقد كما ورد في سورة الفلق.

ويقول "ابن الرومي":[الكامل]

وَحَدِيثُهاَ السِّحْرُ الحَلاَلُ و لَوْ أنَّهُ لَمْ يَجْنِ قَتلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إنْ طاَلَ لمَ يَمِلكْ وإنْ هيَ أوْجَزَتْ وَدَّ المُحَدِّثُ أنّهاَ لَمْ تُوجِزِ [2]

1)–بشار بن برد، الديوان، 69/4، 70 وينظر البيان و التبيين،276/1.
2)–ديوان ابن الرومي شرح أحمد حسن بسج دار الكتب العلمية بيروت ط 1، 1994،183/2.

وورد عن "جران العَوْد": [1][الطويل]

فَلْنــاَ ســقاطًا مــن حَــديث كَأَنّــه جَنَــى النحــل أو أبْكــارُ كَــرْم يُقطّــفُ
حَديثُ لَــوْ أنَّ البَقْــلَ يُــولى بِمِثْلِــهِ زَهاَ [2]البَقْلُ واخْضَرَّ العضاَهُ[3] المُصَنَّفُ

وفيما جاء عن "القطامي" أنّهن قد يقتلن الرجال بحديثهن، قوله:[البسيط]

وفي الخُــدُورِ غَمَامَــاَتٌ بَــرَقْنَ لَنــاَ حَتّــى تــصَيَّدْنَناَ مــن كُــلِّ مُــصْطَادِ
يَقْتُلْنَنَــا بِحَــديث لَــيْسَ يَعْلَمُــهُ مَــنْ يتَّقــينَ ولاَ مَكْنُونُــهُ بــاَد
فهُنَّ يَنْبِذْنَ[4] مِنْ قَــوْلٍ يُــصبِْنَ بِــهِ مَواَقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ[5] الصَّادي[6]

ومن هذه النصوص يتبين لنا ما للأريحية وحسن الأحدوثة من مكانة عند العرب فقد جعلوها من مفاخرهم. ولا عجب في ذلك، فهم أهل خيال ونفوس حساسة؛ قد تثيرهم للحرب كلمة تطعن في شرفهم أو كرمهم، أو وفائهم أو شجاعتهم، وقد تقعدهم. وكانوا أكثر ما يتأثرون من أقوال النساء مدحاً أو ذماً، فيبذلون ما في الوسع التماساً لثنائهن، وربما تعرّض بعضهم للقتل تفادياً لاستخفافهن.[7]

وفي مقابل هذا، فإنّه كما يؤثّر صوت المرأة في الرجل، فإن صوت الرجل يؤثّر في المرأة كذلك. فقد روى "الزمخشري" عن "البعلبكي" -مؤذن الخليفة العباسي المنصور- الذي رجّع في آذانه في أحد الأيام وكانت جارية " المنصور" ممسكة

1)-ينظر البيان و التبين، 281/1، 282.
2)-بدا زهره،
3)- العضاه، جمع عضة: وهي كل شجرة ذات شوك، إلاّ القتادة فإنّها لا تسمى عضة.
4)-أي : يلقين.
5)-الغُلّة- بضم الغين- و الغليل : العطش الشديد.
6)-الصادي : العطشان و الاسم : الصدى.
7)-ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر، بيروت، (دت) 577/2،586.

بإبريق ماء وتصب الماء على يديه، فلما سمعت صوت المؤذن ارتعدت فسقط الإبريق من يدها بسبب تأثير صوته فيها، فأهداها الخليفة للمؤذن قائلاً له: خذها فهي لـك ولا ترجّع هذا الترجيع[1].

ومن هذا القبيل قصة "الذلفاء" مع "سليمان بن عبد الملك" التي صارت إليه بعـد وفاة أخيه "سعيد"، وانتقال الخلافة إليه، فقد روت كتب الأدب واللغة أن "سليمان بـن عبد الملك" كان له مغنٍّ ونديم يدعى "سنان" به يأنس وإليه يسكن، فأنزله بقربه، وكان حسن الصوت، وفي ليلة من الليالي طلب منه جماعة من إخوانـه أن يغنّـيهم فرفـع عقيرته[2] يتغنى بهذه الأبيات :[البسيط]

مَحْجوبَـةٌ سَـمِعَتْ صَـوْتِي فَأَرّقهـاَ ... مِن آخِرِ اللَيْلِ لَمَّا طَلَّهـا الـسَّحَرُ
تَثَنّى على الخَدِّ منها مـن مُعَـصْفَرة ... والحَلْيُ بَادٍ علـى لبّاتِهـاَ خَـصِرُ
في لَيْلة الْـتَمَّ لا يَـدْري مـضاَجِعها ... أَوَجْهُهاَ عِنْـدَهُ أبْهـى أَمِ القَمَـرُ ؟
لَمْ يَحْجِبْ الصوتَ أَحْرَاسٌ ولا غَلَـقُ ... فَدَمْعُهاَ لِطُرُوقِ الـصَوْتِ مُنْحَـدِرُ
لَوْ خُلِّيَتْ لَمَشَتْ نَحْـوِي علـى قَـدَمٍ ... تَكَادُ مِـن لِينهـا للْمَـشيِ تَنْفَطِـرُ

فسمعت "الذلفاء" صوت "سنان" فخرجت إلى وسـط الـدار تـستمع فـرأت أن الأوصاف التي ذكرت في الأبيات لا تنطبق إلاّ عليها فحرّك ذلك سـاكناً فـي قلبهـا فهملت عيناها وعلا نشيجها، ولما افتقدها "سليمان" لم يجدها معه، فخرج إلـى فنـاء الدار فرآها على تلك الحال فسألها : ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت: [الطويل]

ألاَ رُبَّ صَـوْتٍ رائِـعٍ مِـنْ مُـشَوَّه ... قَبِيحِ المُحَيَّا واَضِـعِ الأَبِ و الجَـدِّ
يَرُوعُكَ مِنْهُ صَـوْ تُـــهُ ولَعَـــلَّهُ ... إلى أَمَةٍ يُعْـزى مَـعاً وإلى عَبْدِ

1)–ينظر : الدلالة الصوتية، ص، 127.
2)–أي رفع صوته بالغناء.

فغضب "سليمان" وقال لها: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه خامر، وأرسل إلى "سنان"، فلما حضر بين يديه، عنّفه وقال له ألم أنهك عن مثل هذا ؟ ويلك! أما علمت أن الرجل إذا تغنى أصغت المرأة إليه، وأن الحصان إذا صهل استودقت[1] له الفرس، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن التيس إذا نبَّ استحرمت له الشاة؟إيّاك و العَوْد إلى ما كان منك فيطول غمُّك.[2]

وهكذا يتبيّن مما ذكر أن ثقافة العرب الأولين كانت ثقافة صوتية قوامها الأذن و اللسان، ولا غرابة في قوم ديوانهم الشعر، بل ما ظنك بقوم أعطوا الكلام ومنعوا الطعام–مثل ما سبق ذكره–؟ وإذا كان الله تعالى قد أيّد بعض رسله بمعجزات يتحدون بها أقوامهم في نفس ما اشتهروا به، فكانت معجزة "موسى" – عليه السلام– العصا التي تلقفت حبال السحرة وعصيَّهم في وقت اشتهروا فيه بالسحر.[3]

وكانت معجزة "عيسى" –عليه السلام– إبراء الأكمه و الأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في وقت اشتهر فيه الطب.

فإنّه أيّد "محمدا" – عليه الصلاة و السلام– بمعجزة الكلام فتحداهم بها، قال الله تعالى:{ أَمْ يَقولونَ افْتَراهُ، قُلْ فَأتوا بسورة من مِثْلِه، وادعوا مَنِ استَطَعْتُم مِنْ دونِ الله إِنْ كُنتُمْ صَادقينَ}[4]. وقال :{فذكّر فما أنتَ بِنِعْمةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ ولا مَجنون، أم يقولون شاعر نتربّص به رَيْبَ المنون، قل تربّصوا إنّي معكم من المتربّصين}[5]. وقال:{

1)–أي اشتهت.
2)–ابن عبد ربه، العقد الفريد، شرح و ضبط وتصحيح،أحمد أمين و آخرين، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982، 6/66،69.
3)–قال الله تعالى:{ فَلَمَّا أَلْقَوا سَحَروا أَعْيُنَ الناسِ واسترْهَبوهم وجاءوا بسحر عظيم} الأعراف 7 / 116.
4)–يونس 10/38.
5)– الطور52 / 29،30،31.

فَلْيَأْتوا بِحَدِيثٍ مثْله إنْ كانوا صَادقِينَ}[1]. وقال : { إِنَّهُ لَقَوْلُ رسول كريم وما هو بِقَوْلِ شاعرٍ، قليلا ما تُومنون، ولا بقول كَـاهِن، قلـيلا مـا تـذكَّرون، تَنْزيـلٌ مـن رب العالمين}[2].

ومنه صار اللسان ورياضة الكلام من مميزات العرب به يفخرون وبه يتغلبـون على الأمم الأخرى.

وقد صوّر القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعـالى :{ ومِنَ الناسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قَلْبِه وهـو ألـدُّ الخِصامِ}[3]. وقوله :{ وإذا رَأَ يْتَهُم تُعْجِبُكَ أجْسَامُهُم وإنْ يَقُولُـوا تَـسْمَعْ لِقَـوْلِهم}[4]. ولشدة احتفائهم به وتغلغله في حياتهم أنّهم جعلوا " الحديث والبسط و التأنيس و التلقي بالبِشر من حقوق القِرى ومن تمام الإكرام به، وقالوا : من تمام الضيافة الطلاقة عنـد أوّل وهلة، وإطالة الحديث عند المواكلة"[5].

بل جعلوا الحديث جانباً من القِرى، يقول "عروة بن الورد" [الطويل]:

فرَاشِي فِرَاشُ الضَّيفِ و البَيْتُ بَيْتُـهُ ولَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَـزَالٌ مُقَنَّـعُ
أُحَدِّثُهُ إنَّ الحَدِيثَ مِـنَ القِـرى وتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَـعُ[6]

ويقول "الخريمي" : [الطويل]

أُضاحِكُ ضَيفِي قَبْـلَ إنْـزَالِ رَحْـلِه ويُخْصِبُ عِنْدِي والمحَـلُّ جَـدِيبُ
وما الخِصْبُ للأضْيَافِ أنْ يَكْثُرَ القِـرى ولكِنّماَ وَجْهُ الكريمِ خَـصِيبُ [1]

1)–الطور 52/ 34
2)–الحاقة 96 /40،41،42،43.
3)–البقرة 2/ 204.
4)–المنافقون 63 / 4.
5)–البيان و التبيين 1/ 10.
6)– عروة بن الورد الديوان دراسة وتحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية بيـروت،ط 1، 1992 ص 83.

وكانت جهارة الصوت من بين السمات الشخصية و الاجتماعية و النفسية للمتكلّم، رجلاً كان أم امرأة، فهم يسعون إلى تحقيقها في عملية الأداء الكلامي، وربطوها بالبيان والتبيين والدلالة والفصاحة، فكان الإفهام والتبليغ والفهم والتلقي.

يقول "صفي الدين الحلي":[الخفيف]

لُغَةٌ تَنْفُرُ المَسامِعُ مِنْها حينَ تُرْوَى وتَشْمَئِزُّ النُّفوسُ
إنَّ خَيْرَ الألْفاظِ ما طَرَبَ السَّـ ـمعُ منه وطَابَ فيه الجلِيسُ
إنّما هذه القُلوبُ حَديدٌ ولَذِيذُ الألْفاظِ مَغْنَاطِيس[1]

يتبيّن من هذه الدراسة أن عقلية العرب الأولين متجلية في لغتهم وأن ثقافتهم ثقافة صوتيةيسهم فيها الصوت واللسان إسهاماً كبيراً في حياتهم التواصلية -ولعل ذلك راجع إلى كونهم أمة أمية -سواء ما تعلّق منه بالمنطوق أو بالمعقول، فبقدر ما اعتمدوا على ماهية القول اعتمدوا أكثر على كيفيته.

1)-ينظر البيان والتبيين،11/1، وعيون الأخبار،239/3.
1) صفي الدين الحلي الديوان، دار صادر، بيروت، 1990 ص 624، 625.

المصادر والمراجع

** المصحف الشريف،برواية ورش.

1. بشار بن برد، الديوان، تحقيق، محمد الطاهر بن عاشور،، الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الجزائرية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1976.
2. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ت.
3. جرجي زيدان،تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة،للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د،ت.
4. ابن جني،الخصائص، تحقيق، علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت
5. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، و الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط/1، 1993.
6. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دت

ـــ والمقابسات، تحقيق حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية بمصر، ط 1، 1929.

7. الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران ط 2، 1409هـ.
8. الرازي (الفخر)،التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط/3،بيروت، لبنان، د،ت.
9. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق و ضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع بيروت(دت).

10. ذو الرمة،الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تقديم، مجيد طـــراد، دار الكتـــاب العربي، ط/2 بيروت، لبنان، 1996.
11. ابن الرومي، الديوان، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيـــروت ط 1، 1994.
12. الزمخشري،الكشاف، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، د،ت.
13. صفي الدين الحلي، الديوان، دار صادر، بيروت، 1990.
14. الطاهر بن عاشور،التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، تونس 1984.
15. ابن عبد ربه،العقد الفريد، شرح وضبط وتـــصحيح، أحمـــد أمـــين وإبـــراهيم الأبياري، وعبدالسلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1982.
16. عروة بن الورد، الديوان، دراسة و تحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتـــب العلمية، بيروت، ط 1، 1992.
17. ابن فارس، مقاييس اللغة تحقيق وضبط عبد السلام هارون دار إحياء الكتـــب العربية ط1 القاهرة 1366هـــ
18. ابن قتيبة،عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1925.
19. كريم زكي حسام الدين، الدلالة الـــصوتية،مكتبة الأنجلـــو المـــصرية،القاهرة/ مصر، ط/1992،1.
20. محمد عيد،الروايـــة والاستـــشهاد باللغـــة، عـــالم الكتـــب، مكتبـــة الأنجلـــو المصرية،القاهرة،ط/1976،1.
21. محمد محمود محمدين، مجلة اللسان العربي، المجلد 1980/18.
22. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2004/12/17.